



بطولة ملك



الفُتُوَّةُ والزَّعَامَةُ

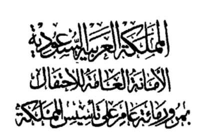
١

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثنيان

صدرت هذه المجموعة القصصية بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م







بطولة ملك

(١)

الفُتُوَّةُ والزَّعَامَةُ

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثنيان

صدرت هذه المجموعة القصصية بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

ح الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان، عبد العزيز بن عبد الرحمن

الفتوة والزعامة. ـ الرياض.

٣٥ ص، ١٧ X ٢٢ سم (سلسلة بطولة ملك؛١)

ردمك: ٠-٢٣-٦٦٠-٩٩٦٠

١ـ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ـ ملك السعودية

٢ـ السعودية ـ تاريخ

أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٩٥٣،١٠٥ ١٩/٢٧٥٥

ردمك: ٠-٢٣-٦٦٠-٩٩٦٠
رقم الإيداع : ١٩/٢٧٥٥

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمدُ للّه الذي أمرَنا بشكر النِّعم، ووَعَدَ الشاكرينَ بمزيدٍ من فضله العَميم والصلاة والسلام على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه.

أمَّا بعدُ؛ فإن الله - جلَّ وعلا - قد أكرمَنا في هذه البلاد الطيِّبة بجمعِ كلمتنا تحت رايةِ الإسلامِ الخالدة «لا إلهَ إلا اللّه محمدٌ رسولُ اللّه» فكلمةُ التوحيدِ هي الأساسُ الذي قامتْ عليه هذه البلادُ. واتخذتْها شعاراً لها ومنهجاً لحياتها وأساساً لنظامها. أكَّد ذلك الملكُ عبدُالعزيز بنُ عبدالرحمن آل سعود حينَ دخلَ مدينةَ الرياضِ في الخامسِ من شوالِ سنة ١٣١٩هـ استمراراً للمنهجِ الذي سارَ عليه آباؤهُ وأجدادُه المستمَدِّ من كتابِ الله وسنَّةِ رسولِه صلّى الله عليه وسلمُ.

وقد جاءتْ فكرةُ الاحتفال بمناسبةِ مرورِ مائة عامٍ على دُخولِ الملك عبدالعَزيزِ مدينةَ الرياضِ وتأسيسِ المملكةِ العربيّةِ السُّعودية تأكيداً لاستمرارِ المنهجِ القَويمِ الذي سارتْ عليه المملكةُ العربيةُ السعوديةُ

والمبادئ السَّامية التي قامتْ عليها، ورصداً لبعض الجهود المباركة التي قام بها المؤسِّس الملكُ عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ في سبيلِ توحيد المملكة عرْفاناً لفضله ووفاءً بحقه، وتسجيلاً لأبرز المكاسب والإنجازات الوطنية التي تحقَّقت في عهده وعهدِ أبنائه خلال المائة عامٍ، والتعريفَ بها للأجيال القادمة.

وما الأعمالُ العلمية التي تُصدرها الأمانة العامة للاحتفال بهذه المناسبة إلا شواهدُ صادقةٌ على نهضة هذه البلاد الزاهرة في ظلِّ دوحة علم؛ أصولُها ثابتة وفروعها نابتة، تَولَّى غرسَها الملكُ المؤسِّس. وتعهَّدها من بعده بَنُوهُ؛ فواصلو رعايتها حتى امتدَّ ظلُّها، وزاد ثمرُها؛ فعمَّ البلادَ خيرُها. وانتفع بها الجميع.

وهذه المجموعة القصصية تُعنى بجانبٍ مِنْ جَوانبِ تاريخِ هذه البلادِ المُباركةِ، ويَبرز من خلالها مدى التزامِ قادتها ـ عبرَ حقبها التاريخية ـ بمنهجها القويم. والاستمرار في تطبيقِه والدعوةِ إليه والدفاعِ عنه.

ولما في نشر هذه المجموعة القصصية من ربْطٍ للأجيال بماضي الآباء والأجداد. وبيانٍ لمآثر المؤسِّس الموحِّد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ـ رحمه الله ـ فقد أمر خادم الحرمين الشريفين الملكُ فهدُ بن عبدالعزيز ـ حفظه الله ـ بطبعها ونشرها بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة.

اللهم إنا نشكرك، ونتحدث بعظيم نعمتك علينا. وقد وعدت الشاكرين بالمزيد، فأدمْها نعمةً، واحفظها من الزوال.

وصلى الله وسلم وبارك على نبِّينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمير منطقة الرياض
رئيس اللجنة العليا ورئيس اللجنة التحضيرية
للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

سلمان بن عبدالعزيز

مقدمة المؤلف

الحـمـد لله الذي يُؤتي ملكه مَنْ يشـاء، والصـلاة والسـلام على الهادي المصطفى وبعد.

فـهذه قـصةُ بطولة، وسيـرةُ شجـاعـة لملك صـارع الفرسـانَ فكانَ أصبرَها، وفـاوض الدُّهاةَ فكانَ أفطنَهـا. استعـادَ مُلكاً، وبنَى مَجداً، ووحَّدَ أمـةً. آتَاه الله سُلطاناً فصـارَ نَعيمًـا لشَعْبه، وخَيـرًا للأحْفَـاد والأجيَال.

هذَا البطلُ تحـدثَتْ عنه كـتبُ التـاريخِ، وقـالـتْ عَنه كُتبُ السِّيَـرِ، وروَى معاصرُوه الكَثيرَ من مَواقفه، والعَجيبَ من دَهائه.

وهَذه السلسلةُ التي دوَّنتُها ليسَتْ إلا قراءةً من الكتبِ التي أرَّختْ للبطلِ، وسماعاً من بعضِ المعاصرينَ لَه.

وقَد كتبتُها بأسلوب قَصصي؛ ليقرأَهَا الشبابُ وغيرُهم، فيستَعيدوا ذكْرَ هذَا العَظيم، ويعتَزُّوا بهذَا المؤسِّسِ، ويَفْخَرُوا بالمجدِ الذي ورَّثه، والتآلُف الذي حقَّقه.

إنَّهـا سلسلةٌ تَروي دَهاءَ القَائد، وفطنةَ المؤسِّس، وبراعةَ الموحِّد، وعظمـةَ الرَّمـزِ، وتَحكي الأهوالَ التي تَعـرَّض لَهـا، والأخطارَ التي

طوَّقته، وتُصوِّرُ الوَلاءَ الَّذي كانَ لَه عندَ الأجدَاد، والحُبَّ الذي كانَ لَه عندَ الحاضرة والبادية.

وهيَ تَعرضُ لحلْمه وبطُولته، وتَعكسُ فطنَتَه ونجَابتَهُ، وتَروي عظمتَهُ في المَوَاقف الحَرجة، وكَيفَ عالجَها؟ وتُصوِّرُ خوفَه من اللَّه، واحترامَهُ للعُلَماء، وتقدَيرَهُ للفُرسان، وإكرامَه للمخلصينَ، وتكشفُ عَن صدق نيَّته وإخْلاصه لدينه.

وقَد ركَّزْتُ أثناءَ الكتَابة على الجَانب الأدبيِّ والرَّصيد اللُّغويِّ؛ ليزدادَ القارئُ المستهدَفُ حصيلةً لُغَويَّةً، وثَروةً أسلوبيَّةً، وليعرفَ مثلاً أنَّ الغَضَنْفَرَ، والهزَبْرَ، والرِّئْبَالَ، كلماتٌ تُطلَقُ على الرَّجُلِ الشُّجاعِ، فهي من أسماء الأَسد.

هذَا وعلَى الرَّغم من اخْـتـلاف الرِّوايات حولَ بَعض الأحدَاث، وانفراد بعض المؤرِّخينَ، أو الكُتَّاب، أو الرُّواة، بهَذه الحادثة أو تلكَ الرِّوايةَ، فإنِّي أعرضُ ما يترجَّحُ لديَّ، ولا أقومُ بالمناقشَة، وَردِّ هَذه الرِّواية، أو تلكَ الحادثَة؛ فلستُ مؤرِّخاً ولا باحثاً علمياً يقرِّر حقائقَ تاريخيةً، أو جوانبَ علميةً، ويلزمُه الترجيحُ والتَّعليلُ؛ وإنَّما قارئٌ نظرَ في كُتب التَّاريخ التي أرَّخْت ودوَّنَت، ثُم عرضَ تلكَ البطولةَ من جَانبٍ أدبيٍّ تاريخيٍّ. ولهَذا لَم أذكُر المصادرَ عندَ إيرادِ الأحداثِ،

وإنَّما اكتفيتُ بذكرِ الكُتُبِ التي اعتمدتُ عليها في نهايةِ القصَّة الأخيرة، حيثُ إنَّ جميعَ ما أوردتُه استقيتُه من هَذه المرَاجع.

وهَذه السلسلةُ من اثنتَيْ عَشرةَ قصة، أرجُو أنْ أكونَ قد أدَّيْتُ بها بعضاً من الواَجب، وشيئاً من الأمانة، وخُصوصاً أنَّ المملكةَ تَستعدُّ للاحتفَال بمُرُورِ مائة عامٍ علَى تأسيسهَا.

وإنَّني لأرجُو أنْ تكونَ هَذه المجموعةُ من الأسبَاب التي تُذكِّرُنا بالبَطلِ، فندَعُو له؛ فهُو اليومَ أحْوَجُ ما يكونُ إلى الدُّعاءِ.

رحِمَه الله، وأسكنَه فسيحَ جَنَّاته.

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثنيان

الـريـاض: ١٤١٩هـ ١٩٩٩م

الفُتُوَّةُ والزَّعَامَةُ

كان طفلاً ذكياً، وشبلاً جسوراً، طويلَ القامة، مَهيب الطلعة، وُلدَ في الرياض عام ١٢٩٣هـ، ونشأ في بيت مجد وفضل، وأصل وحسَب، وشهامةٍ وكرامة، وزعامةٍ وقيادة.

بزَّ أقرانَهَ، وفاقَ رفاقَهُ، يقودُ الصبيانَ حينَ يلعبُ معَهم، ويرأسُ الأطفالَ حينَ يكونُ بينهم. يأمرهم فيسمعونَ قولَه، وينصحهم فيُصْغون إلى نُصحه، يُحب الفروسيةَ، ويَهْوَى البطولة.

إذا أقبلَ نظر له الأطفالُ تحيةً وتقديراً، وإذا جلسَ تحلَّقَ الصغارُ حولهُ شوقاً وإعجاباً. القيادةُ له والزعامةُ لفريقه.

انقسم الأطفالُ ذاتَ يومٍ إلى فريقين، واختلطتْ أصواتهم، وعلاَ ضجيجهم، وترددت الأصوات: أنا مع من، أنا مع من؟ أما هو فكان يقول: من معي، من معي؟ هيَّا إليَّ، تجمَّعوا حولي.

إنها طفولةٌ تأبى الانقيادَ، ونفسٌ طموحة تنشدُ الرِّيادةَ، وعلاماتُ النَّجابة تزدادُ يوماً بعدَ يوم، وشواهدُ الزَّعامة تنمو شهراً بعدَ شهر!

التفَّتْ قلوبُ الصِّغار حولهُ، فصارَ زعيمَهم، إنْ تجمَّعوا سألوا: أينَ هو؟ وإنْ لعبوا توقَّفوا: أين هو؟ وإن اختلفوا فهوَ الحكَمُ، وإنْ تشاجروا فهوَ الفَيْصل، وإنْ ظلمَ طفلٌ آخر شكَا إليه، وإن جارَ صبيٌّ على زميله أسرعَ إليه.

يُنقَلُ على لسانه - رحمه الله- أنهُ أحسن استعمالَ البندقية وركوبَ الخيلِ وهو في سنِّ الصِّبا، وأنهُ كانَ في السابعةِ من عمره حادَّ الطبعِ، دائمَ الحركةِ، لا يستطيع الاستقرارَ في مكان واحد فترةً طويلة.

وتعلَّمَ مبادئَ القراءة والكتابة في صباهُ، وحفظَ سوراً من القرآن الكريمِ، وتلقَّى بعضَ أصولِ الفقه والتَّوحيد.

وكانَ يميلُ إلى سَماعِ تاريخِ جدّه الإمامِ فيصلِ بنِ تركي من بعضِ الشيوخ المسنين.

ونما الطفلُ، فما إنْ ميَّز وأدركَ حتى وجد الأحداثَ التاريخيةَ تتسارعُ أمامَ ناظرَيْه؛ فأعمامُه متفرقون، وخصومُهم يترقَّبون، ويشهدُ المواقفَ الحرجةَ، الواحدَ تِلوَ الآخرِ.

إنها أحداثٌ مُرةٌ، ومواقفُ صعبةٌ يراها تباعاً وتتجسَّدُ أمامَه يوماً بعد يَوم.

ويُبصرُ أمراء حائل من قبل آل سعود يتحركون حين رأوا ما دبَّ من خلافٍ بين أبناء الإمام فيصل بن تركيٍّ ـ رحمه الله ـ ويطمعونَ في الزعامةِ، ويأخذون في إعداد العُدَّة، وتنفيذ الخُطَّة.

وجاء محمدُ بنُ عبد الله بن رشيد إلى الرياض بحجَّة الانتصارِ لفريقٍ من آل سعود، وهو ينوي السيطرةَ والزعامةَ.

ودخلها وأقام سالم بن سبهان أميراً عليها، وعاد إلى حائل ومعه الإمامُ عبدُ الله بن فيصلٍ، وأخوهُ الإمامُ عبد الرحمن بن فيصل، والدُ البطل، وعددٌ آخرُ من آل سعود، بينهم الملك عبدُ العزيز نفسُه.

وفي سنة ١٣٠٧هـ أذنَ ابنُ رشيد للإمام عبد الله بن فيصلٍ ولأخيه الإمام عبد الرحمن وأسرتَيْهما أن يعودوا إلى الرياض، وقد عاهد ابنُ رشيد عبد الله على أن يكون إماماً في بلاده، ولكن عبدَ الله تُوُفِّيَ في هذه السنة بعد وصوله إلى الرياض.

وعندَ ذلك كتب الإمامُ عبدُ الرحمن بن فيصل إلى ابن رشيد يخبرهُ بذلك، ويسألهُ أن يعزلَ عامله حسبَ العهد المذكور. ولكن ابن رشيد لم ينفذ العهد، وإنما غير عامله في الرياض بعامل أخر، وعهد إليه أن يتخلص من آل سعود.

وكانت الخطَّةُ أنه إذا اجتمعَ آلُ سُعود لَدَى الإمام عبد الرحمن يومَ العيد يأتي عامل ابن رشيد ليسلِّمَ عليهم، ومن ثَم يتم القَضاء عليهم في يوم الفرح والسرور.

وعلم الإمام عبدالرحمن بتلك النية، واستعد للأمر. ولهذا ما إنْ قدم عاملُ ابن رشيد، سالم بن سبهان، وجلس قليلاً حتى طلب من الإمام عبدالرحمن أن يدعوَ أفرادَ الأسرة للسلامِ وتهنئتهم بالعيد، وليلقيَ عليهم كلاماً من ابن رشيد، إلاّ أن السعوديين كانوا أسرعَ، فقد وثبُوا عليه وعلى رجاله، وبدلاً من أنْ يباغتَهم بادروه بالسيوف وقتلوا عدداً من رجالهِ، وأسروا سالم بن سبهان، وقيَّدوه، وجدد أهلُ الرياض البيعة بالإمارة للإمامِ عبد الرحمن بن فيصل، وذلك في ١١ من ذي الحجة عام ١٣٠٧هـ.

وبعـد أن علمَ ابن رشـيـد بما فعلَه الإمامُ عـبـدُ الرحـمنِ بعـامله في الرياض زحف بجيشه وحاصرَ الرياضَ أربعين يوماً، ثُم دعا أهلها للصُّلح، فخرجَ إليه وفدٌ مؤلَّفٌ من الفتى البطلِ عبد العزيز بن عبد الرحمن، الَّذي كـانَ في فتـرة الصِّبـا والفُتـوة آنذاك، وعمُّـه الأمير محـمـد بن فيـصل، والشـيخ عـبـد الله بن عـبـد اللطيف، والشـيـخِ حـمـد بنِ فـارسٍ، وجـرى الاتفـاقُ على أن يكـونَ الحكم في العـارضِ للإمـام عبدالرحمن بنِ فيصل، وأن يطلقوا عاملَ ابن رشيد، سالمَ بن سبهان.

إلاّ أنَّ هذا الصلحَ لم يَدُمْ طويلاً؛ فـقـد عـاد ابن رشـيـد للغـزو مرةً أخرى، وتحرَّكَ من حائل نحو القصيم والرياضِ. واستعدَّ الإمامُ عبدُ الرحمن لصدِّه، ووصلَ ابن رشيد إلى القصيم، فزحفَ الإمامُ عبدُ الرحمن لملاقاة ابنِ رشيد، ولكنَّه قبلَ أن يبتعدَ كثيراً عن الرياض جاءتهُ الأخبارُ أنَّ ابنَ رشيدٍ فتكَ بأهلِ القصيم في معركة الـمُلَيْداء، واتجهَ إلى الرياض.

وعندَ ذلك عادَ الإمامُ عبدُ الرحمن بجيشه وهو موقنٌ بأنَّه لا طاقةَ له بحرب ابن رشيد وليس أمامه إلا النجاةُ بنفسه وبأهله.

وكانَت الهجرةُ، وكان الفـراقُ قراراً صـعبـاً، ولـكنه قرارُ العـقل

والحكمـة، فيـومَ تغيَّـرت الأرضُ وتبدَّلت الأحـوالُ رأى الإمامُ عـبدُ الرحـمن بثـاقب بصـره أن لا مـقـامَ له في الـرياض، وأنْ لا بـدَّ من المغامرة، ومن ثَمَّ العودة والوثبة.

وكـان الفتـى النجديُّ والشبلُ العـربيُّ والفـارسُ القـادمُ يتـميَّزُ أسًى وحسـرةً، ويتنهَّـد حـزناً ولوعـة، فكيف يودِّع أرضاً أحـبَّهـا، ومـدينةً ألفها؟! ولكنَّها الأقدارُ، وما قدَّر اللهُ وقضَى صارَ وكانَ.

وظلَّت الـذكريات في ذهن الفتى، والآمـالُ في خـاطره.. فـمتى سيعود؟ وكَيف سيعود؟ وهل - يا ترى - سيعود؟ إنها الرياضُ العزيزةُ، ولعله كان يتلَّفت ويردِّدُ قولَ أبي فراس:

أودُّك وُدّاً، لا الزمــانُ يُبـيــدُه

ولا النأيُ يُفْنيه، ولا الهـجرُ ثالـمُه

وكـأنِّي به وهو مُـرتحلٌ مع الرَّكب يناجي نفسـه ويقـولُ: لنا موعـدٌ معك أيَّتُها المدينةُ الحبيبةُ، ولنا عودةٌ لك أيتُها المعشوقةُ العزيزةُ.

كيفَ أنسَى طفـولتي؟! وكيفَ أتركُ عزِّي ومجدي؟! وكيف أدَعُ

أهلي وعشيرتي؟! أجل، سيكونُ لي مغامرةٌ، وسوف يكونُ لي معاودةٌ؛ فالمَوْعدُ قريب.

قال الفتَى لأبيه: كيفَ نرحلُ وندَعُ مجدَنا؟!

فقال أبوه: صَبْراً يا بنيَّ.

قال الفتى: وكيف نصبرُ ونحنُ أهلُ حقّ؟!

فقال الأبُ: الصبرُ طريقُ الفَرَجِ.

قال الفتى: وإلى مَتى؟!

فقال الأبُ: إنَّ معَ العسرِ يسراً، وإنَّ مَن صبرَ ظفر.

وللَّه دَرُّه من أبٍ! فكأنه يقرأ قولَ الشاعر الأبيورديِّ:

تنكَّرَ لي دهري ولم يَدْرِ أنَّني
أعزٌّ وأحداثُ الزمانِ تهونُ
فباتَ يُريني الخطبَ كيفَ اعتداؤُه
وبِتُّ أُريهِ الصبرَ كيفَ يكونُ

وبعدَ ذلك قالَ الفتى لأبيه : لكنَّ الحزمَ أبو العزمِ، أبو الظَّفرات .

قال الأبُ: ماذا تقولُ؟!

قال الفتى : هو ما سمعتَ يا أبي .

فقالَ الأبُ: وماذا بعدُ ؟!

قال الفتى : والتَّركُ أبو الفركِ، أبو الحسراتِ .

فقال الأبُ : إنَّكَ - إن شاءَ اللهُ - الأملُ، وإنَّك الغدُ .

قالَ الفتى : لا تقلقْ يا أبي .

وانطلقَت القافلةُ تتهادَى، وكأني بالإبل وقد سالت بأعناقها الأباطحُ، والرجالُ يتلفَّتون ولسانُ حالِهم يردِّدُ قولَ الشَّريف الرَّضيِّ :

وتلفَّتَتْ عيني فمُذْ خَفِيتْ   عَنها الطّلولُ تلفَّتَ القلبُ

أما الصغيرُ فكان رافعَ الرأس، سارحَ الخيال، يفكِّرُ في العودة، ولكنَّها عودةُ الشجعان، وأوبةُ الفرسان، ولعلَّه كانَ يُردِّد قول الشاعر :

فوَاللهِ ما فارَقتُهم قَالياً لهم
ولكنَّ ما يُقضَى فسوفَ يكونُ

وسار الركبُ إلى المجهول، إلى الصحراء ينشُدُ المأوى ويطلبُ الأمانَ.

وأحسبه يتغنَّى بقولِ الشاعرِ الشَّنفرى الأزديِّ:

وفي الأرض مَنْأى للكَريمِ عن الأذَى
وفيهَا لِمَنْ خَافَ القلَى مُتعزَّلُ
لَعَمْرُكَ ما في الأرضِ ضيقٌ على امرئ
سَرَى راغباً أو راهباً وَهْوَ يعقلُ

وعاشَ الشبلُ مع أبيه في قفار تقطُنها قبائلُ من آل مُرَّةَ، وأخرَى من العجمان في شماليِّ الربع الخالي قُربَ يبرين التي تبعُدُ عَن الأحساءِ إلَى الجنوبِ مائةً وستِّينَ ميلاً[1].

وامتدَّ المقامُ نحو سبعة أشهر، وصَهَرتْه الصحراءُ، وذاق مرارةَ العيش، وكَوَتْه رمالُ الرّبع الخالي وهو في ميعة الصِّبا.

---

(١) الميل: ١٦٠٩ م.

وفي الصحراء ألفَ الخشونةَ، وذاقَ القسوةَ، وتعلَّم الصبرَ والشدةَ، وسامَر النجومَ، وناجَى الليلَ، وصادَ الظِّباءَ.

وكأنِّي به يتغنَّى بأنشودة الصحراء مع شاعرها الشَّنفَرى الذي سبق ذكره حيث يقول:

وإنِّي كفاني فَقْدُ مَن ليس جازياً
بحُسْنى ولا في قُـرْبه مُـتعـلَّلُ
ثلاثةُ أصحابٍ فُؤادٌ مُشيَّـعٌ
وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عيطلُ[1]

وبعد صبرٍ وعناء، وشدَّة وبلاء، وبطولة وقسوة انتقل الفتى إلى قطر وإلى البحرين، وقد تجلَّت شخصيتُه، وبرقت فطانتُه في الكثير من المواقف . . فذلك الشيخُ عيسى بنُ علي آل خليفةَ، حاكمُ البحرين يلاطف الفتَى الشهمَ عبد العزيزِ ويسألهُ مداعباً: هل المقامُ بقطَر أفضلُ

(١) الأصحاب الثلاثة هم: فـؤاد مشيَّع: قلبٌ شجاع.
أبيض إصليت: سيفٌ مجرد.
صفراء عَيْطل: نبال طويلة وصلبة.

أم بالبحرينِ؟!

فيجيبُ الشبلُ بصراحة وجرأة:

لا هنا ولا هناك، وإنما هنالك.

فيقولُ الشيخُ عيسى: أين؟!

فيقولُ البطلُ: في الرياض، ففيها خيرُ مقامٍ، وفيها خيرُ بقاء؛ فهي مدينةُ الأهل والأجداد.

وصفَّق الشيخُ عيسى إعجاباً وإكباراً وابتسمَ تحيةً وتقديرًا، وقال: إن لم تَخُنِّي فِراستي ـ ولا أظنها ـ فسيكون لهذا الغلام شأنٌ ومجدٌ.

وصدقت نبوءتُه فيما بعد، وتحقَّقت فراسته فيما ظنَّ؛ فقد دارت الأيامُ دورتها، ومضت أسابيعُ وامَّحت شهورٌ. . وكان هذا البطلُ أحدوثةَ التاريخِ، وأنشودةَ الأجيال.

وفي عام ١٣١٠هـ انتقلَ الإمامُ عبدُ الرحمن إلى الكويت، واستقرَّ فيها، وقضى الفتى عبدُ العزيز قُرابةَ عشرِ سنوات في تلك البلاد، شهِد خلالها أحداثاً ومواقفَ بَنَتْ شخصيته، وكوَّنت له حصيلةً منَ

الثقافة السياسية العملية. فقد أنسَ فيه الشيخُ مباركُ بن صباح صفات الألمعيِّ اللَّبق، فقرَّبهُ منه، وفَسحَ لهُ المجالَ لحضور مجالسه، والاستماع إلى أحاديثه مع ممثلي الحكومات الإنكليزية والروسية والألمانية والتركية.

ويعيش الفتَى في الكويت، والطموحُ يزدادُ، والأملُ ينمو، وهمُّهُ عودةُ المُلك، وهاجسُه رَجْعةُ المجد، وتبلغ به الجرأةُ وهو في طورِ الفتوَّة أن يقنع بعضَ الفتيان بالسَّير إلى نجد وإثارة العشائر على ابن رشيد؛ فامتطى بعيراً خرجَ به معَ أصحابه، ونزلوا ببعض القبائلِ فلمْ يجدوا مَن يسمعُ لهم، فيَئس رفاقُه وانصرفوا عنه، وعادَ وحدَه ماشياً وقد ظلعَ بعيرهُ. وأحبَّ أن يكتُمَ خبرَ إخفاقه لولا أنَّ رِفاقه سبقوه وتحدَّثوا بالأمر.

وذهبَ الفتى إلى أخته الكبرَى «نورةَ» وقصَّ عليها القصةَ، فهتفت به مستنهضةً عزيمته وقالتْ له: لا تندبْ حظَّك كالنساء، إن خابت الأولى والثانيةُ فسوف تظفرُ في الثالثة. وابحث عن أسباب فشلك، واجتنبها.

ولله درُّها من امـرأة حـرَّة أبيَّـة سَليلة مُلك، ووارثة مـجـد، وتربيـة الإباء والعزِّ؛ فقد شدّت من عَضُده، وقَوَّتْ عزيَمتَه.

وقد ظلَّ الفتى يذكُرُ أختَـه وتحريضـهـا لـه على البطولـة والإقدام، وأصـبح ينتـخي بهـا في غـمـرات الحرب وسـاعـات الهـول، فـيـهـتفُ ويقولُ: أخو نورة، أنا أخو الأنور.

ويتميَّزُ الفتى، ويتَنَهَّدُ الأسدُ، وتضيقُ الكويت بفارس الغد وسليل المجد. . ويُكثر من التعريض لأبيه بعزمه على المغامرة، وبتصميمه على المباغـتـة، ويصـدُّه الأبُ، ويردُّه الوالدُ، ويسـتـبـدُّ به القَلقُ ذات ليلةٍ، ويجفوهُ النومُ ويذهبُ إلى أبيه، ويُحادثه ويُحاوره. .

يقول الفتى : أبتاه، إلامَ الانتظارُ؟

فيقول الأبُ : وماذا ننتظرُ يا بُنَيَّ؟

فيقول الفتى : الرياضَ؛ العودةَ إلى الرياضِ.

فيقولُ الأبُ : وكيفَ نعودُ يا عبدَ العزيز؟

فيقولُ الفتى: قاتلْ يا أبي واطرُدْ خصومنا فإنَّ أحداً ليس أحقَّ منكَ بالرياض.

فيقولُ الأبُ: كفاكَ يا بنيَّ تمسُّكاً بالأوهام؛ فإن محمدَ بنَ رشيد لديه قوة ومنعة، وهو يسيطرُ على البلاد الممتدَّة من صحْراء سوريةَ في الشمال إلى رمال الرّبعِ الخالي في الجنَوب.

فيقولُ الفتى: ولكنَّ هناك كثيراً من القبائل الموالية لَنا تنتظر الفُرصةَ المواتيةَ للانقضاضِ عليه، وتترقب منّا الوثبة والمبارزة له.

فيقولُ الأبُ: إن هذه القبائل ترتجف هَلَعاً أمامَ صَرامته وبأسه، ولن تجرؤَ على ذلك.

فيقولُ الفتى: وما العملُ إذاً يا أبتاه؟!

فيقولُ الأبُ: أنْ تذهبَ الآنَ فتنامَ، وسوفَ نبحثُ الأمرَ في وقت آخر.

ويعودُ الفتى إلى فراشه، ولكنْ أنَّى له أنْ ينام! فالنفسُ كبيرة والطموح أكبر، وكأنَّ المتنبِّي يقصدُه بقَوله:

وإذا كَانَتِ النُّفوسُ كِباراً
تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ

وكانت الذكرى الأليمةُ رفيقةَ أفكاره، وسميرةَ أحلامه، وصارَ يقرأ ويفكِّرُ في ملك آبائه وأجداده. إن جلس أمامَ البحر ناجى أمواجه وشُطآنه متى نعود؟ وإن نظر إلى الصحراء فهواجسُ المُلك المسلوب تطارِدُه، إنه يُعايشُ الأمراءَ والعلماءَ، ويجلسُ ساكتاً متأدباً في مجلس الشيوخ، وهو يفكر في ملك آبائه وأجداده. . إنه دوماً يرمقُ السيفَ بنظرة كلُّها شوقٌ وأمل.

وصار الفتى يستحثُّ الزمانَ، ويحدِّثُ رفاقه حديثَ الواثق بالعودة، الجازم بالأوبة، ويبادلهُ المحبونَ المشاعر، فقد سار ذاتَ يوم في الكويت ومعه رفيقٌ له، ودار بينهما الحديث التالي:

قال الرفيق : أدعو اللهَ أن تعود يا عبدَ العزيز إلى الرياض وأن تضربني هناك.

قال عبدُ العزيز: ولماذا؟

قال الرفيق : لأني أرى فيكَ المستقبلَ القادمَ، وإذا ضربتَني فأنتَ الإمامُ.

قال عبدُ العزيز: نعودُ ونكرمُك ولا نضربُك.

وتدور السنونَ ويعودُ عبدُ العزيز، ويهمُّ ذاتَ مرة بضرب هذا الرجلِ فيذكِّرُهُ، فيبتسم عبدُ العزيز ويشكرُ الله.

وتتطوَّر الأحداثُ ويتوفَّى محمدُ بن عبدالله بنُ رشيد عام ١٣١٥هـ، ويخلفه في الحكم ابنُ أخيه عبدُ العزيزِ بنُ متعب بن رشيد الذي لم يكنْ يتمتعُ بما كان يتمتع به سلفه من حنكة سياسية، فيطمعُ في الاستيلاء على الكويت، وتدور رحى الحرب بين ابن رشيد وابن صباح، وقبل دوران الحرب، اهتبل الفتى البطلُ الفرصةَ، وتقرر أن يقوم هو منفرداً بالسير نحوَ الرياض حتَّى يضطرَّ ابنُ رشيد إلى أن يقاتل جيشين في مكانين مختلفين، وتم ذلك، فما إن زحفَ الشيخُ مباركٌ بقوَّاته في عام ١٣١٨هـ ووصلَ الشَّوْكي الذي يبعدُ عن الرياض نحو مائة وستين ميلاً شمالاً بمَيْل قليل نحوَ الشرق، حتَّى انطلق الملكُ عبدُ العزيز بفرقة من ذلكَ الجيشِ نحوَ الرياض، وقد نجحَ في دخولها دونَ صعوبة، وهلَّل أهلها، واستبشَر سكانُها، ولجأت حاميةُ ابنِ رشيد إلى حصنها المسمَّى المصْمَك.

وشرعَ البطلُ الظافرُ في حفرِ نفق إلى الحصن وباشرَ رجالُه العملَ، وكاد الحصنُ يسقطُ لولا أنَّ الأخبارَ وصلته بهزيمة ابن صباح في معركة الصَّريف، ولهذا قرَّرَ إخلاءَ الرياض بعدَ أن أيقنَ بعودته مرةً أخرى، وعادَ برجاله إلى الكويت؛ فالرأيُ قبل شجاعة الشجعان.

وعادَ البطلُ إلى الكويت وفي النفس حسرةٌ، وفي الفؤاد لوعةٌ؛ فقد ذاقَ حلاوةَ النصر، وكَحَّلَ عينيه بالرياض موطن الأهل ومكان الطفولة وقاعدة الحكم السعودي، وباتَ قلبُه يشتعلُ ونفسه تقومُ وتقعدُ؛ فقد ازدادتْ معرفته بالرياض، وظهرَ أمامَ الناس بأنّه الفارسُ المنقذُ والبطلُ القادمُ، وكيفَ يصبرُ على الضَّيم؟! ولهذا باتَ يُكثرُ منَ التعريض لأبيه بالعزم على المغامرة الثانية، وكان الأبُ يصدُّه ويزجره خوفاً عليه وشفقة.

وذاتَ مَساء لقي أباه على انفراد خارجَ المدينة فهمَّ بالحديث، وأعرض الأبُ وأصرَّ الابنُ، وألقى عباءَتهُ على الأرض وعروقُه تنتفضُ، وقال: اجلسْ يا أبي.

إنه أسلوبٌ لم يعتدْهُ عبدُ العزيز؛ فهو البارُّ بأبيه، ولكنها النفسُ الطموحُ، والآمالُ المتوهجةُ، والزَّعامة المبكرةُ، والأمرُ الجَلَلُ.

وجلس الأبُ وأمامـهُ الشُّعلةُ المتوقـدةُ، والجوهرة المتلألئة، ابنهُ عبدُالعزيز.

قالَ الابنُ: أبتاه أنت بينَ أمرين إمّا أن تأمرَ أحدَ عبيدك بانتزاع رأسي من بين كتفَيَّ فأستريحَ من هذه الحياة، وإمّا أن تنهضَ من تَوِّك فلا تخرج من منزل شيخ الكويت إلا بتأييد خروجي للقتال في بطن نجد.

قال الأبُ وقد رأى تصميمَ ابنه: على بَركة الله. قالَها متململاً.. قالها قلقًا.

وذهب الأب إلى مبارك الصباح، وأخبرَه الخبرَ، وطلبَ تأييده وتسهيل الأمر.

وتلقَّى البطلُ الموافقةَ فاهتزَّ فرحًا، وهلّل طربًا، إنها العودةُ، إنها المغامرةُ، واستعدَّ للسفر.

وقال الأبُ: بُنَيَّ لا أريدُ صدَّك ولا أودُّ منعك، ولكنْ كما ترَى نحنُ في غربة، وحالنا يقتضي استخدامَ الحكمة في إدارة أمورنا.

قال الابن: لقد عزمتُ وتوكلتُ على الله.

قال الأبُ: أسألُ اللهَ لكَ العونَ والظفرَ.

وانطلق البطل من الكويت عام ١٣١٩هـ، ومعه عددٌ من أفرادِ أسرته وأقاربه ومؤيديه لايجاوزون أربعين رجلاً.

وسار وكله ثقة بالله، واعتماد على الله، يقول أحد رفاق الرحلة: حين تجاوزنا أسوار الكويت، أناخ عبدالعزيز ركائبه، ثم اغتسل ويمم القبلة، وأخذ يصلي، ويدعو ربه بما لا نسمعه، ونحن وقوف ينظر بعضنا إلى بعض، وقد ملأ المشهد جوانحنا غبطة، وتفاؤلاً كبيراً بأن رحلتنا موفقة - إن شاء الله.

ومضى المغامر، وهوَ في الخامسة والعشرينَ من عمره، ولكنَّ عقله سابقٌ لسنِّه، فقد كان بعيدَ النظر، عظيمَ الهدف، جريئًا في المغامرة، سريعاً في المباغتة، وأراد أن يلفت أنظار القبائل إليه، فقام بغارات جريئة على بعض العشائر، ولحقَ به نحوُ ألف راكب ذلول وأربعمائة خيال، واجتاز بهم الصمَّانَ والدهناءَ، وأغارَ على بيوت لقبائلَ من أعوان ابن رشيد ثم عادَ إلى أطراف الأحساء، وذاق البطلُ حلاوةَ النصرِ، وتوافدَ عليهِ عددُ كبير من رجالِ القبائل.

ثم انطلقَ البطلُ مرةً أخرى فوصل إلى سدير، وأغارَ على إحدَى القبائل الموجودة هناك والموالية لابن رشيد، ثم عاد ونزلَ ثانيةً بأطراف الأحْساء، وازدادَ جيشُه حتى أصبحَ ألفاً وخمسمائة ذلول وستمائةِ خيال.

وتحدَّثت القبائلُ بهذه الانتصارات، وتناقل الرواةُ هذه البطولات، فتسارعَ الكثيرُ من الرجال إليه يتبعون الظافر، ويؤمُّون المنتصر.

وقلق ابنُ رشيد حينَ سمعَ الأخبارَ، وأرسلَ رسولاً إلى الشيخ قاسم ابن ثاني يستنهضُه ويستحثُّه على هذا العدوِّ الجديد، وكتب إلى القادة الأتراك في البصرة يذكرُ استفحالَ أمر ابن سعود، ويقترحُ طردَه من نواحي الأحساء، وتحريضَ البوادي عليه. فأجابَ الأتراكُ الطلبَ، فتفرَّق مَنْ صَحِبَهُ في تلك المناطق، فبعضُهم ذهبَ يطلبُ المرعَى لمواشيه، وبعضهم لا يريدُ أن يتعرَّضَ لسخط الدولة. ولم يبق بجانبه إلا الذين رافقوه من الكويت وعددٌ لا يبلغُ نصفهم ممن التحقوا به بعد ذلك.

واستمر ابن رشيد في المتابعة والكتابة والملاحقة والمطاردة، وصار يستنجدُ الأتراكَ في احتلال الكويت ويحرِّضُهم على آل سعود.

وكتب الإمامُ عبدُ الرحمن مشتركاً مع الشيخ مبارك إلى البطل المغامر عبد العزيز يدعوانه للتوقف عن الإغارة ، ويحذِّرانه العواقبَ، ويسألانه الرجوعَ إلى الكويت .

وتوجَّه البطلُ بالرفاق المخلصين إلى يَبْرين ، وفي آخر يوم من رجب عام ١٣١٩هـ نظر فلم يجد إلاّ هؤلاء الرجالَ الصادقين ، وجمعهم في مجلس للمداولة وقرأ عليهم كتاب أبيه ، ثم قال :

لا أزيدُكم علماً بما نحنُ فيه ، وهذا كتابُ والدي يدعونا للعودة إلى الكويت قرأتهُ عليكم ، ومباركٌ ينصحُنا بالعودة ، أنتم أحرارٌ فيما تختارونه لأنفسكم ، أما أنا فلن أعرِّضَ نفسي لأكون موضعَ السخرية في أزقَّة الكويت ، ومَن أراد الراحةَ ولقاءَ أهله والنومَ والشبعَ فإلى يساري ، إلى يساري .

كلماتٌ من القلب وعباراتٌ من الفؤاد ، تصميمٌ وعزيمةٌ ، وإرادة وبطولة ، وأحسبُه يقرأ عليهم قولَ أبي فِراسٍ الحمدانيِّ :

ونحن أناسٌ لا توسُّطَ عندنا

لنا الصدرُ دُون العالمين أو القبرُ

تهونُ علينا في المعالي نفوسنا

ومَن خطبَ الحسناءَ لم يُغلها المهرُ

وتواثب الأربعون، بل الستون، إلى يمينه، وأدركتهم العزَّةُ، فاستلّوا سيوفَهم، وصاحوا مُقسمين على أن يصحبوه إلى النهاية.

والتفتَ عبدُ العزيز إلى رسول أبيه - وهو حاضرٌ يشهدُ - وقالَ له: سلِّم على الإمام وخبِّره بما رأيتَ، واسألْه الدعاءَ لنا، وقلْ له: موعدُنا - إن شاء الله - في الرياضِ.

وباتَ البطلُ يفكِّرُ ويدبِّر، كيفَ الهجومُ؟ وكيفَ الانطلاقُ؟ ومتىَ يكونُ الرحيل؟ ومتى يكون الوصول؟ عقلٌ ناضجٌ، ورأيٌ حازمٌ، وبطلٌ ساهرٌ. وكانت الخطّة أن يغيبَ عن الأنظار، وأن تنساه الرواةُ، وأن يظنَّ الناسُ أنَّ الصحراءَ ابتلعت عبدَ العزيز ورفاقَه، وأن الرمال طمرَت البطلَ وأصحابَه. ومضت خمسون ليلةً وهم على تُخوم الرّبع الخالي من غير أن تشاهَدَ لهم رايةٌ أو يسمعَ عنهم حكايةٌ، واطمأنَّ ابنُ رشيدٍ وسرَّحَ الكتائبَ التي كانَ قد حشدها للبطل القادم، فقدْ تفرَّق رجاله وانقطعتْ أخبارُه.

وكانت خطةُ عبدِ العزيز أن يتوجَّه إلى الرياض ويباغتَ حاميتَها ويفاجئَ حرَّاسَها ويتحدَّى ابن رشيد وينازلَ خَصمه العنيد، فإمَّا حياةٌ كريمة أو ميتةٌ شريفة، وانطلق وهو يعلمُ أنَّ الرياضَ تحنُّ إليه؛ فأهلها رجاله، وسكانها أنصاره، يتشوَّقون لمقدمه، ويتلهَّفون لوصوله.

وتحرَّكَ البطلُ برفاقه من يَبْرِين في العشرين من رمضان عام ١٣١٩هـ، واتجهَ إلى الرياض؛ يختفون نهاراً ويسيرون ليلاً، وأدركَهُ العيدُ في موضع يقال له أبو جفان على طريق الأحْساء، فعيَّد فيه ثم رحل منه، ولم تغب شمس الرابع من شوال إلا وهم على مشارف الرياض الجنوبية الشرقية، وهناك أخذ القائدُ يضعُ خطةَ الدخولِ إليها والسيطرة على مقاليد الأمورِ.

وفي الجزءِ القادم عرضٌ للبطولة والاقتحامِ،

وبسطٌ للتضحية والإقدامِ.

مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٣١٩ - ١٤١٩ هـ

جاءت فكرة الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على دخول الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود -يرحمه الله- مدينة الرياض، وتأسيس المملكة العربية السعودية: تأكيداً لاستمرار المنهج القويم والمبادئ السّامية التي قامت عليها المملكة، ورصداً لبعض الجهود المباركة التي قام بها المؤسس الملكُ عبدُ العزيز في سبيل توحيد المملكة؛ عرفاناً بفضله. ووفاءً بحقّه. وتسجيلاً لأبرز المكاسب والإنجازات الوطنية التي تحقّقت في عهده وعهد أبنائه خلال المائة عام، والتعريف بها للأجيال القادمة.

وما الأعمال العلمية التي تُصدرها الأمانة العامة للاحتفال بهذه المناسبة -وهذه المجموعة القصصية أحدها- إلا شواهد صادقة على نهضة هذه البلاد الزاهرة في ظل دوحة علم؛ أصولها ثابتة وفروعها نابتة. تولّى غرسها الملك المؤسس. وتعهّدها من بعده بنوه؛ فواصلوا رعايتها وعنُوا بخدمتها حتى عمَّ البلادَ خيرُها. وانتفع بها الجميع.